المنازل

7

قصة

ليلة... في العزيب...

عبدالكريم غلاب

... اقعى وهو يضع كوعيه على الارض كما لو كان ينتظر منا ان نساله:
ـــ كيـــف كانـــت قصتـــك ... ؟

بدا كتمثال رائع لم يفرغ الفنان بعد من تشذيب اطرافه، او تركه دون تشذيب ليكون اكثر تمثيلا للطبيعة . تتراقص ظلال الشمعة اليتيمـــة في الغرفة السادرة في الظلام على وجهه الاشعر الجميل ، لحيته الخفيفـــة بشعراتها الذهبية اللامعة ، عيناه الزرقاوان تقطران ذكاء وحدة . الظلال تبين ، اكثر مما تخفي ، ملامح الرجولة والعافية والبطولة . عمامته المكورة على راسه تؤكد قوة الشخصية . هي تاج رجولته فيما احسب لا تكاد تريم عن مكانها ، وليس في جو الغرفة ما يدعو للاحتماء من برد او اشعة شمس ... واشعت ابتسامة فاتنة على محياه وهو يتجه الينا بعينيه الحادتين ..

كان صديقي يقترح علي ان نقضي يوما او يومين في العزبة التي تركها والده . وكانت العزبة المتنفس الذي يلجا اليه بعض المترفين من سكان فاس كلما ازهر الربيع واخضرت الحقول . لا يدري احد كيف تسرب هذا الغرام بقضاء بضعة ايام من كل ربيع في العزبة الى المترفين من سكـــان

فاس : الا انهم يرغبون فى « النزهة » والتملي من ربيع ناحية فاس الجميلة والاستدفاء بشمسها الناعمة بعد شتاء فاس وغيوم ملبدة داكنـــة ؟ ام لان مالكي الضيعات يرغبون فى ان يتعرفوا على املاكهم ، وقد اخرج فيها القمح والشعير سنابله ، وابقرت المجلات وترعرعت العجول ، حتى يطمئنوا الى دخلهم السنوي ؟ مهما يكن فقد كان الربيع هو المتنفس الوحيـــد لسكان فاس . لم يكونوا يعرفون تصييفا ولا تشتية . لا يكادون يخرجـــون مـــن مدينتهم المتقوقعة على نفسها الا حينما يركبون البغال والحمير المثقلـــة بالافرشة والادوات المنزلية ليربعوا فى الضيعات مع عائلاتهم ، ان كانوا من المتطرفين الذين لا يأنفون من ان تقع عين احد الفلاحيـــن صدفـــة على زوجاتهم او على نساء المنزل عامة ، او ليربعوا فى الضيعات مع اصدقائهم ان كانوا من المحافظين تاركين النساء والبنات ولو كن طفلات بين جدران المنزل ، وكأنهن حارسات الشرف الرفيع خوفا عليه من ان يثلم ...

ولم يكن الفصل ربيعا حينما الح علي الصديق ان اقضي معه يوما او يومين فى العزبة ، وانما كانت تباشير الخريف قد اهلت فى سماء فـــاس تغلفها الالوان الرمادية وتحاصر حرارتها اللاهبة فلا ينفذ اليها غربـــي او شرقي من هذه الرياح التي ينعم او يشقى بها سكان المدينة المحبوبة . وما ادري حتى الان اذا ما كان الصديق قد الح علي فى ان اصحبـــه لمجـــرد التخلص بعض الوقت من هذا الطقس القاتم ، او ان مصالحه فى تفقـــد الضيعة كانت تدعوه لان يبحث عن انيس . وكنت انا هذا الانيس .

كان علينا ان نحمل زادنا وان نركب بغلة ــ او لعله كان حمارا ، لم اعد اذكر فقد طال عهدي بالحدث ــ ومررنا ونحن فى طريقنا على احدى بوابات المدينة ببائع عصير عنب فاقتنينا قارورة اضفناها الى زادنا ، واتجهنا على بركة الله نحو العزبـــة .

ساعتان ، تقلان او تزيدان ، ونحن نتارجح على ظهر البغلـــة كرقاص ساعـــة قديمـــة .

لم تكن نائف من ركوب بغلة من هذا النوع الذي يحمل البضائـــع او الانسان على حد سواء ، ولم تكن نتعب من هذا التارجح الذي يوشـــك ان

يعود بنا الى عهد المهد ، فليست هناك وسيلة لاجتياز طريق العزبة غير هذه المراكب الفارهة للذين يملكونها ، او المشي على الاقدام للذين كانوا يطوون المراحل على اقدامهم قبل ان تدهمهم طريق السيارة اللعينة .

استقبلنا الخماس في ترحاب فقد كان ينتظرنا . ولعله انس بوجودنا. فهؤلاء الفلاحون كانوا يعيشون في منفى ، وآسع فسيح ، ولكنه مع ذلك منفى . لا يرون وجها غريبا عن الوجوه التي يالفونها الا يوم السوق ، وهم لا يتسوقون كل اسبوع ، والا يوم ان تدعوهم الضرورة الى زيارة المدينة ـ وقليلا ما كانت تدعوهم ـ او يزورهم احد سكان المدينة ممن يرتبط معهم برباط الارض ـ وقليلا ما كان يفعل ـ .

لم يكن الخماس يملك ما يرحب به ـ فيما يظهر ـ الفلاحون يرحبون بمالكي الارض في ايام الربيع لانها ايام الخير ، ولكن الخريف بداية المحل بعد صيف جاف قاس التهمت دخله الحاجة والزواج وديون الشتاء ... ولم يكن صديقي ينتظر غير هذا الترحيب العاطل الا من الابتسامة المرحة والبشر الذي تهلل به وجه الخماس الجميل وهو يمسك بزمام البغلة في عرصة الدار ، اعني التي كانت في يوم ما دارا ...

احسست باني تخلصت من سجن وانا اغادر باب « الكيسة » قبل ان تتعانق ضلفاها فتنغلقان على المدينة كما تغلق بوابة السجن الكبير . الهواء الرحب والافق البعيد ، والشمس التي تتحرر من قطعان السحب الرمادية وخفيف الاشجار وزفرة الطيور ونهيق الحمير ، و « السلام عليكم » يهتف بها بدوي يسير على قدميه الحافيتين وبلغته فوق رأسه ، وكانه يؤنس وحدته بالسلام على رجل غريب ، او كانه يزرع الامن والسلام بين رفاق طريق ليسوا في حاجة الى اكثر من الامن والسلام ...

دخلنا الغرفة المتبقية من الدار التي تهدمت جوانبها . الحفة بسيطة هي كل وطائنا . والحديث مع الفلاحين البسطاء هو كل ما نملأ به الوقت.. وغابت الشمس لتترك لهيبها القاني يندلع في الافق الازرق فيمنحنا المعنى الذي لم نفهمه ونحن نفتح صفحات القواميس على كلمة « اللازورد » .

آوينا الى الغرفة وقد زحف الليل . تحلقنا حول عشـــاء بسيط كان الخماس يجالسنا من بعيد، كان يتحدث كانه يختزن كل اخبار القرية والقرى المجاورة . تمثلت ، وهو يتحدث ، رجل اعمال يعرف كل شيء عن دخل الجيران مما يكسبون ويخسرون . كان كرجال الاعمال يدور بالحديث عن عطاء الارض التي يرعاها والمكاسب التي ادرتها على المالك . كان يدرك ان صاحبها لم يعد واحدا فقد تركها المالك للاولاد ، وهو يعرف بالخبرة ان الورثة لن يكونوا فى حرص المالك الذي جهد لتملك هذه الارض الكبيرة . بدا عليه الارتياح وهو يذكر الورثة . فلعله كان يستطيع ان يعيش مع الورثة اكثر مما يستطيع مع المالك الكبير .

اشتد نقيق الضفادع وهدا نباح الكلاب بعد ان اختفت اشباح الظلال . فقد ساد الظلام ولا قمر فى السماء .. وكلاب الفلاحين تنبح عنـــد ايـــة حركة ولو كانت من ظل زائل .

تعلقت عيناه اللامعتان بغلاي الماء وهو يزفر ببخاره الصاخب . لعله يتوق الى كاس شاي . فقد كان حريصا على ان ياتي معه بحزمة نعناع من الحقل ، وكان حريصا على ان يعد ادوات الشاي ــ وهي ادوات لا تخرج من مكمنها الا يوم السوق ــ اكثر مما كان حريصا على ان يعرف ما صحبنا معنا من اكل . ازهر وجهه بابتسامة وهو يتلقى تعليمات الصديق :

ــ الطويل ، اعد لنا برادا من الشاي ، عربي ومشحر ...

لم يسكت احمد الطويل ــ ولم يعد يعرف بغير الطويل لقامته الفارعة ــ وهو يعد الشاي . فقد اخذ يسالنا عن طريقنا من المدينة الى العزبة، ويحمد الله على ان حادثا لم يعترضنا .

لو عرف الصديق ان سؤالا يلقى عليه من هذا النوع لما استطاع ان يجتاز بوابة المدينة . بدا الخوف على وجهه ، وانفتحت عيناه على ابعادهما وهـــو يســـال :

ــ وهل الطريق مخيف بحيث كان ينتظر منه شر ... ؟

احس احمد الطويل انه اثار مخاوف الصديق فكانت مناسبة لحديث طويل يلذ معه السهر على كؤوس الشاي القوية الحلوة المشحرة .

ـــ لم يعد مخيفـــا كما كان من قبـــل .

والتفت الينا واعواد النعناع تفرقع بين يديه :

ـــ جئتم في زمن العز ، فقد كان الواحد منا لا يقطع الطريق بين باب « بوشتاتة » و « فاس » بعد « حوف العصر » لا يامن على نفســـه الا المسافر في قافلة ، او البطل الذي تفرق من بطولته الجبال ...

احس بانه اثار فضولنا بقدر ما زاد من خوف الصديق . اضاف :

ـــ ... ولم اكن يومئذ ممن عرف كبطل في القرية . ولذلك حدث لي ما حدث :

واقعى وهو يضع كوعيه على الارض ويمسك بالكاس الدافـــىء في غبطة وكانه ينتظر منا ان نسال

ـــ وكيـــف حـــدث ذلـــك ؟

افترت اسنانه البيضاء عن ابتسامة الظفر . ازداد وجهه الاشقـــر تالقا من خلال اشعاعات راقصة منبعثة من شمعة يبدو انها مزهوة بضيائها في ظلام الغرفة الكالح ، وكان قد اقترب منها وهو يعد الشاي تحت ضيائها، بدت عيناه المتالقتان وكانهما تعيشان ذكرى سعيدة . كان وهو يتحـــدث يغرس عينيه في وجهك كما لو كان يريد ان يرغمك على ان تستمع اليه :

ـــ كنت في معية الشباب طري العود ، لم تبد الرجولة على محياي بعد . وكان والدي قد قضى ، فتحملت مسؤولية العزبة كخماس بدلا منه .

التفت الى صديقي ، وكانه يذكره بحدث يعرفه :

ـــ والدك الحاج العباس ـ الله يرحمه ـ وضـــع ثقتـــه في ابن خماسه . البركة في عمي قدور ، رشحني وضمنني ...

نطق صديقي وهو يضحك كما لو كان يعرف ما وراء هذا الترشيح والضمان ، وكنت اجهل السر :

ـ آه يالعفريت ... وقدورة ضمنتك عند قدور ... ؟

ازدادت ابتسامة احمد الطويل تألقا وهو يعترف :

ـ لولا اني كنت احب فاطنة ابنته ...

قاطعه الصديق :

ـ وتحبك ...

ـ الحقيقة كانت تحبني اكثر مما كنت احبها . امها « يامنة » ما تزال تامر عمي قدور فيطيع . هي التي دفعت به الى ان يرشحني ويضمنني، ويلح على الحاج العباس في تعييني خماسا .

قلت وانا اتدخل في الحديث :

ـ او كنت سعيدا بمهمتك ؟

اجاب باقتضاب من لا يريد ان يجيب :

ـ الحمد لله ...

حاول الصديق ان يعود باحمد الطويل الى قصته :

ـ اكمل ... اكمل ، فما تزال تفرق في حديث « قدورة » كانك تعرفت بها امس ...

ـ المهم اني تزوجت ... والله ياودي يا سيدي ...

والتفت الي كاني انا المعني الوحيد بحديثه وهو يضيف :

ـ ما كنت اطيق البعد عنها ولا فراقها . وكانت هي الاخرى تتبعني حيثما سرت : في الحقل ، في الخيمة ، في السوق ، في الكدية حينما

اخلو الى نفسي في عشايا الصيف والربيع ، في الضيعات المجاورة حينما ازور الاصدقاء ...

اضاف في زهو وهو يتوجه بنظراته الى الصديق :

— انتم اهل فاس لا تعرفون هذا الشوق ... المدينة ... الدار ... الجدران السامقة ... المتجر ... السوق ... تلك اشياء تشغلكم عنها وتحجبها عنكم ... كنت احبها كما لم احب احدا في حياتي !!

— ومـــا زلـــت ... ؟

تساءل الصديق وهو يتلذذ بحديث احمد الطويل ...

— ما زلت احبها ، فهي ام اولادي . ولكن حب عهد الفتوة والشباب له طعـــم آخـــر ... !

وابتسم وهو ينظر الي كما لو انه يستحي ان يصرح . فانا بالنسبـــة اليه ضيف غريب لم يرفع الكلفة بيني وبينه كما رفعها مع الصديق محمد . حاول ان يغيظه فعلق :

— هي ما تزال شابة ... انت الذي ... ما بقـــي غيـــر الغاس والقيـــــاس ... !

اعتدل احمد الطويل من اقعائه . بدا تحت اضواء الشمعة الباهتة في رجولته وحيويته وفحولته وجمال وجهه كبطل من ابطال الاساطير . ضحك في سخرية وهو يجيب :

— انظن اني من الدجاج الابيض ... ما يزال عمك احمد في عـــز الفتوة ... لولا حبي لفاطنة لتزوجت اربعة ...

عاد فاقعى ، فتلك جلسته المفضلة في سهرته ، وكانـــه اعلـــن عن استعداده لمبارزة ثم عاد الى مكانه ، واستانف يروي قصته :

— استدعاني الحاج العباس ، الله يرحمه ...

ترحم على الحاج العباس وهو يشدد على كلماته ويتجـــه بنظراته الى الصديق ، واستانف :

ـــ ... لاقدم له تقريرا عن حالة « الصابة » وكانت الامطار قـــد شحت فى بداية الموسم . كان علي أن اقضي يوما فى فاس بعيدا عن فاطنة. كادت بلهفتها تمنعني لو قدرت ... قلب المحب خبير . تطيرت من لهفتها واشفافها (اضاف وهو يضحك) ولكني ارضيتها قبل ان اغادر الخيمة ... ستجرب عندما تتزوج ...

قال ذلك وهو يتجه لي بالخطاب ، فلم ارد بغير ابتسامة تاييد .

ـــ كانت تخاف علي أن ابعد عنها ولو للعمل يوما واحدا

علـــق الصديق مناكفـــا :

ـــ لعلها تخاف منك ولا تخاف عليك ...

ـــ ... والله آودي آسي محمد لم اطمع فى غيرها منذ عرفتها .. اضاف وهو يضحك ملء قلبـــه :

ـــ ... وهل كانت تدعني فترة تتجه فيها عيناي الى غيرها ... ؟

قال الصديق محمد وقد اخذ اهتمامه يزداد بقصة احمد الطويل منذ ان سمع اسم والده :

ـــ اكمل ... هل جئت تسهر معنا لتحدثنا عن فاطنة ...

والتفت الي مكملا فى سخرية واغاظة :

ـــ ... كانه عرفها امس فقط ... (ثم اتجه اليه بالخطاب) منذ سنوات وانت متزوج بها ، وتتحدث عنها كما لو كانت عروسا فى اسبوعها الاول ... !

استانف احمد الطويل قصته وهو يضحك فى نشوة ، يمسح ريقه ، وقد فاض من جنبات فمه، بكم جلابته :

ـــ قضيت اليوم فى فاس يسالني ويعيد السؤال . ولم يشـــا ان يتركني . كان خائفا على مصير العام ... وكانه ، يرحمه الله ، كان يطمئن

وانا اؤكد له : ما يكون غير الخير . كان لا بد ان اعود في يومي ذلك ، والا اعود بيدين فارغتين : الحنة للعروس ، وقالب السكر . واشتهيت وانا امر « بالكوايحي » ان اعود اليها بعشاء ترحمني عليه . وطلبت قرضا من الحاج فاستمهلني :

— ليس معي صرف الآن ...

... عدت اصف له طلائع السنابل ، احدثه عن البقرات التي تنتظر حادثا سعيدا . كان ، رحمه الله ، يسعد بحديثي وكانه لم يقدر على فراقي ... قلبي كان هنا . واستاذن فلا ياذن . واطلب فيستمهلني ، ووجدني عند باب المسجد وهو يخرج من صلاة العصر :

— ما تزال هنا ؟ انثوي على الرحيل ؟

— هذا المساء ، اعمي الحاج ... ما ازال انتظر السلف ...

ابتسم ، ولم يكن يضحك الا نادرا ، ومد يده في جيبه . وانتظرت طويلا . لعله كان يعدها من الداخل .

قال احمد الطويل ذلك وعيناه تلمعان بابتسامة ساخرة . واتجه الى الصديق محمد كانه يخشى ان يغضبه . اضاف وقد اكتسى وجهه طابع الجد :

— ... بهذا الحرص بنوا املاكهم . واولاد اليوم جاءتهم الاملاك بين ايديهم سهلة . احدهم ورث ، والآخر ربح في الحرب وثالث في ورقات اليانصيب . هكذا قالوا لي في المدينة ... هنا في القرية لا نعرف شيئا من هذا ... لا ارث ... لا ارباح حرب ... لا يانصيب ... ربنا كما خلقتنا .

عاد الى قصته وهو يصب من بقايا البراد في كاسه :

— من باب المسجد الى السوق . وفي زنقة « قبيبة الناقص » كان « الكوايحي » العجوز — تعرفانه دون شك — وقد بدات نار مشواته

تخبو ، ينتظر الطارئين والرائحين . ثم اخذت طريقي الى باب الكيسة . كانت شوارع المدينة الداخلية قد بدات تغرق فى لونها الرمادي . الظلام يزحف . ومدينة فاس لا تنتظر الغروب لتظلم شوارعها الضيقة ، ولكنها تودع عالم النور بعد العصر بقليل . بالقرب من باب الكيسة بدات الشوارع تتسع . وبدا النور يعم ارجاء الشوارع . وعلى مشارف الباب الكبيرة كانت الشمس قد اشرفت على الرحيل . شعاعها الذهبي يلامس السطوح ، وعلى رؤوس الاشجار يودع المدينة الى لقاء . كنت اسابق هذا الشعاع الباهت وانا اغذ السير لاخرج من الباب قبل ان يتلاقى مصراعاها فيكون محكوما علي آنذاك ان اقضي الليل فى فاس . وهو شيء لم اكن لاحتمله فى ايامي تلـــــك ...

ـــ ولم تكن قدورة تحتملـــه ...

فاطمه محمد ضاحكا وكانه يود احراجه . ولكن احمد الطويل لم يكن ليخرج . اجاب واسنانه البيضاء تلمع على ضوء الشمعة الباهتة بابتسامته التقليديـــة :

ـــ فى الصباح وانا اغادر الخيمة كانت ملهوفة توصيني الا اتاخر . مبهورة الانفاس كانت تودعني :

ـــ ظهرا انتظرك لا تتاخـــر ...

انتظرت ان تبتسم ... كان من عادتها الا تصدر اوامر ، ان يكـــون طلبها رجاء ، ولكنها لم تبتسم . قلبها كان خبيرا وهي تضيف :

ـــ ... والا خاصمتـــك ...

ضممتها الى صدري فى شوق كما لو اني لم ابت فى حضنها ...

قال ذلك وقد غمرت وجهه موجة حياء . ازداد شقرة وازدادت عيناه لمعانا تحت ضوء الشمعة الهفهاف . ابتسم وهو يشعر بلذة الذكـــرى . اضـــــاف :

ـــ ... اودي آسي محمد خليني احتشم من السيد (وهو يشير الي بعينيـــــه) ...

قال محمد وهو يتتبع قصته فى لذة المحروم :

ـــ احك ... احك ... انت مغرم بحكاياتك ... بعد ان ضممتها الى صدرك قبلتها ؟ اليس كذلك ؟ ولعلك تجاوزت القبل ... قل لا تخجل.

ـــ اودي آسي محمد كان ذلك من زمن طويل . لعلي نسيت

ـــ تنسى كل شيء الا حكاياتك مع قدورة ...

ادركت الباب الكبيرة واحد المصارعين قد ارتد الى امام . افـــواج الرائحين تفد فى عجلة كانما كانت تخشى ان يدركها الليل وقد سدت ابواب المدينة فى وجوهها . البواب الكهل يقف عند المصراع الثاني وصوتـــه يهتف فى تكاسل كما لو كان راعي ابقار :

ـــ يالله آسيدي ... اسرعوا فساقفل الباب ...

جملة يكررها فى تلقائية وهو يتطلع من حين لآخر الى من تاخر بـــه سعيه من الرائحين يستحثه فى عنف ان يسرع . انتفض فى استفـــزاز وهو يلحظني اكاد اتسلل خارجا بين امواج الداخلين :

ـــ وانت آذاك الراجل ...؟ اين انت ذاهب ...؟ عد من حيثاتيت

قال ذلك وهو يعترض طريقي بيده كما لو كان رضوان الجنة يود ان يمنعنـــي عنهـــا .

ـــ آخالي محمد ما يزال فى الوقت متسع . الشمس ما تزال على مشارف السطـــوح ...

ـــ الشمس ... ؟ اين تاخرت حتى الآن ... ؟ ممنوع الخروج ..

ـــ ليس عندي مكان ابيت فيه ... اتركني ... انا قريـــب على بعـــــد خطوتيـــن ...

نظر الي بعينين ملتهبتين وهو يحذرني :

— الفنادق كثيرة ، عد من حيث أتيت . والا ... (ونادى باعلى صوتـــه) العســـاس ...

تراجعت قليلا حتى تخلصت من اعتراض يده لافكر بعيدا عن نظراته الصارمة . لم اكن استطيع ... لم اكن استطيع ان ابيت خارج الخيمة .

— كل هذا خوفا من قـــدورة ؟

هتف به محمد وهو يتتبع قصته فى شوق ...

— ليس خوفا ... ولكن ... لا ادري ما هو ... لم اكن استطيع . وعدتها ان اعود خيل الي انها ستجن اذا لم اعد فى ليلتي ... كنت اتخيل وضعيتها منذ زالت الشمس . حالة انتظار ملىء بالقلـــق واليـــاس ... مسكينة قلبها رهيف ...

فكرت فى العودة الى البواب ولكني خشيت العساس ... واهتديت : كان فى « قبي » رطل سكر هو بعض مما اقترضته من الحاج العبـــاس . اعود للخيمة دون سكر ... ؟ كيف تحلو السهرة مع فاطنة دون شاي ...؟

— اقتسمه مع البواب وانفذ من قبضته ...

هكذا هتف بي (وهو يشير الى راسه) وانحلت الذراع المعترضـــة وهـــو يقـــول :

— الله يخلف ... لكن دبر شغلك ... لا امان فى الطريـــق ... انا ما شفتني ما شفتك ...

وضعـــت بلغتـــي فى قبـــي

— آويلك ... مع السكر والكواح ... ؟

قال محمد ساخرا . استمر احمد الطويل دون ان يعبا بسخريته :

— ... اخذت اعدو . لم ابتعد بضع خطوات عن الباب حتى خلت الطريق من كل انسان . الطيور وحدها كانت انيسي وهي ترفرف عائدة الى اعشاشها . اعترضتني بومة كبيرة واقفة فى طريقي كانما لم تعد تخشى انسانا . رميتها بحجر وانا العن اليوم الذي رات فيه النور . اختفت اشعة الشمس من رؤوس الهضاب فى سرعة ، لعل شيطانا كان يطاردها . عم هدوء مخيف وكان هذه الارض لم تغن بالامس . حتى الطيور اختفت . بدا الليل يزحف . اخذت اشعر بالوحشة . انفاسي وحدها كانت تتردد فى عنف فتتسع لها اذناي كانها شهقات مفجوع . توالت خطواتي السريعة ، الطريق تزداد طولا وكانها لا تطوى . بدات اتصعد العقبة ، اقتحمت الشعبة . اطبقت الظلمة كانها كانت تترصدني ...

عم الهدوء الغرفة الغارقة فى الظلمة الا بصيص من نور باهت ترسله ذبالة الشمعة التي تهاوى قوامها ، ما تزال ظلالها على الوجه الاشقر فى جلسته الفنية كان مخرجا بارعا رسم وضعه ووزع الضوء والظلال ليحيى عنصر الماساة فى الوجه الطافح بالجمال . وجهت عيني وانا اتتبع المنظر الى وجه الصديق محمد . كان مبهور الانفاس ساهم الوجه ، نظراته معلقة بشفتي احمد الطويل ، اذناه بدتا فى الضوء الباهت طويلتين ، لعلهما كانتا تخشيان ان تفوتهما كلمة . اختفت تعليقاته الساخرة فى موجة الرعب التي عمت كيانه . واستمر احمد الطويل :

— ... اقشعر بدني وانا اتوسط الشعب ...

اضاف كانه يدفع عن نفسه تهمة :

— ... لم اخف ... لكن لعل الجو بدا يبرد ...

توارى عناد محمد . تضاءل وجهه وراء الظلال ...

اضاف احمد الطويل :

— وتحركت اغصان الاشجار الوحشية وسيقان القصب الغارعة ، انفرجت عن يميني وعن يساري فى نفس الوقت . كانا عملاقين يتسلحان بعصوين اثارا النقع من حولي وهما يخبطان الارض فى عنف ...

ـــ انـــت يا هذا ... قـــف ...

طرت من مكاني وانا اهوى على احدهما بكل جسمي . فاجاني الآخـر بضربة لعلها كانت قاسية ... قاتلة ... لم اشعر الا بقوة الاصطدام خلف صدفي ، وانتهت صلتي بالاحساس ...

لا ادري كم تغيبت عن دنيا الناس ، ولكن الذي ادريـــه اني شعرت بالخدر يسري في اطرافي . احسست بان الموت ربما فاجاني . لم اقبل ان تنهشني الكلاب والذئاب . انطلقت كما لو كان عواؤها يملأ مسامعـي . احسست كانها تطاردني . اخذت اجري بين الشعاب أتصعد المرتفعـات انزل الوادي . كانت رجلاي وحدهما تعرفان الطريق . الظلام مخيم . حتى نجوم السماء لم تعد تهدي الضالين . اختفت الخيم والاكواخ والمداشر ، ولم يعد هناك الا انا والليل والارض التي تطويها قدماي في سباق مـع الرعـب ...

وارتميت على باب « المشتى » :

ـــ آفاطمـــة ... آفاطمـــة ...

كان صوتي خائرا كانين المحتضر . ولكنها هبت مفجوعة من اعماق نومها ، كانت راقدة ... اقسمت انها لم تنم . على صدرها اكتشفـــت ان دما حارا كان يسيل من راسي ، ولكني بين ذراعيها نمت نومـــا عميقـــا . وشفيـــــت ...

في الصباح بحثت عن الخبز بالكواح والحناء وبقية ما اقرضني الحاج العبـــاس ...

لم تعد فاطمة في حاجة الى حناء فقد اصبحت يداها ـ وما تزالان ـ اشهى الي في بياضهما . واقسمت بعدها الا امر على « قبيبة الناقص » ، والا اخرج من فاس بعد العصر ...

* × *

نهض احمد الطويل وهو يدفع بيده صينية الشاي نحو الجدار :

ـــ مساؤكم سعيد .

قالها وهو يبتسم كما لو كان قصاص « جامع الفنا » يودع زبناءه فجاة وقد انتهت قصته ...

ـــ تعال ... تعال ... الى اين ... ؟

قالها الصديق محمد وعيناه متعلقتان بالوجه الاشقر والعينين المسالمتين والقامة السمهرية . بدت له بطولة احمد الطويل هي الانيس في الليلة المرعبة التي وضعها بين ايدينا وحاول ان ينصرف . لم اكن اشاركه الرعب ، ولكني مع ذلك كنت لا آمن ان انام في غرفة مهجورة ينام فيها معي مرعوب . تلفتت عيناي نحو محمد . كان وجهه ينطق بالاستعطاف . لم يعد محمد الطويل امامه الخماس الذي يخدم الارض ويحمل النتاج الى المدينة ليضعه بين يدي الحاج العباس ، ولا « البقار » الذي يحمل كل اسبوع الى العائلة قربة اللبن تعوم فيها كرات الزبدة الطرية ، ولا « الدجاجي » الذي يتسلح بكل قسم بانه لم يسرق الدجاج ، وانما البرد والمرض قتلها ، كلما حمل نتاج الشهر من الدجاج والبيض ... ولكنه اصبح الرجل الذي يحمي حياتنا في الليلة المرعبة من اولئك الذين كادوا يفتكون بحياته في الشعب الملعون .

وابتسم محمد الطويل في خبث وهو يتلذذ بنظرة الاستعطاف والرجاء من الفتى الذي لم يعرف منه الا الكبرياء والسخرية والاستغلال . في عيني محمد بدا وجه الحاج العباس . لو كان هو مكان ابنه اكان يستعطف ويرجو ... ام يصدر امرا صارما لاحمد الطويل ان ينام معه ليحميه من الرعب ، ان لم يكن داخل الغرفة فعلى بابها ؟ الاسنان اللامعة التي لم تكتحل بالدخان ولا صدئت باكل اللحوم ما تزال تعرب عن ابتسامتها الجميلة في خبثها . العينان المرعوبتان ما تزالان جاحظتين في ضراعتهما ، واحمد الطويل يتقدم بخطوات وئيدة نحو الباب في تلذذ واستمراء ... شيء ما كان يدفع به نحو الباب ...

ونهض الصديق محمد يرجوه ويلح . كنت انتظر ان يقبل اليديـــن اللتين لم تعرف التقبيل . وفى ابتسامة المشفق المنتصر انعـــم احمـــد الطـويـــــل :

ـــ ساعود ... انتظرني ... لا تخف ...

غيبته الباب . ومحمد يبحث عن مفتاح يغلقها وراءه فلم يجد . فكر فى ان يدعمها بشيء ثقيل فلم يجد . وفى ظلال الشمعة الباهتة بدت لـــه صخرة ضخمة تثوى فى ركن ، كانت القشة التي تعلق بها ليضعها خلـــف الباب ، وهو يعرف انها لن تحمي البـــاب من اي طارق . عاد الى مكانـــه والصمت القاتل يخيم على الغرفة الغارقة فى البؤس والظلام والرعب . هم ان يطفىء الشمعة . الظلال كانت تتراقص على الجدران فترسم معها صور الثاوين وراء الشعب ينتظرون الصيد ... فكر فى الظلام . كتم النفخة بين اسنانه . عاد الى مكانه وعيناه معلقتان بالباب المفتوح المغلق . اللحظات تمر بطيئة . حاولت ان احرقها بكلمات لا معنى لها ... كنت وحيدا اتحدث مع الميت الحي . حاولت ان اسلي عنه بنكتة فلم يبتســم . كان الخماس وحده الامل فى الحياة ... واحمد الطويل فى غيبته الطويلة ... لا ادري كم غاب . الزمن لم يكن يقاس بالدقائق والســاعـــات . محمد كان يضـــع الغطاء على راسه ليخفي عن عينيه الظلام والوحدة .

فجاة بدات الصخرة الثقيلة تتحرك فتردد جدران الغرفة حشرجتها فى عنف . اصداء مرعبة فى الغرفة الغارقة فى الصمت ... عينا محمد تسمرتا على الباب ، وقد بدات تتحرك كان شيطانـــا ماردا براودهـــا فى تلصص . يد سمراء تمتد من فتحة الباب . لا ادري هل ظل قلـــب محمد ينبض . امتدت راس تتبع حركة اليد فى حذر . عينـــان لامعتـــان فى زرقتهما ، ابتسامة سعيدة انفرجت عنها الاسنان البيضاء . تحية من احمد الطويـــــل :

ـــ كنت اخشى ان تكونا نائمين ...

ردت الحياة الى محمد ، وما يزال غارقا فى الرعب . اجبت ، وقد افرج عن كلماتـــي :

ـــ ما نزال فى انتظارك ... هل اخرك عمل مهم ... ؟

اتسعت الابتسامة السعيـــدة :

ـــ ... وهل هناك اهم من عمل الليل ... ؟

انبعثت الحيـــاة فى محمد :

ـــ اما كنت تستغنى الليلـــة ... ؟

ـــ آسي محمد . اذا استغنيت انا فلن تستغنى هي ... (رنت ضحكة قوية) ستتزوج فتدرك .

وبدات الاحلام السعيدة تراودنا ... س ... س ... فى انتظار ما بعد : س ... هل ياتي ؟ فى انتظار الذي ياتي ولا ياتي ...

ـــ الله يصبحكـــم على خيـــر .

قالها احمد الطويل وهو ينفخ على لهيب الشمعة . اختفت الظـــلال والضياء الباهت . غرقت الغرفة فى الظـلام . عادت صـــورة الشعـــب والعملاقين الفارعين ينبعان من بين القصب والحشائش ، والارض تدور باحمد الطويل فى دوامة الموت . انطلق صوت مرعوب .

ـــ آ احمد الطويل قص علينا قصة اخرى ... الى ان ننام

وبدا احمد يحكي وصوته يتهدج . الكلمات تخرج من فمه فى تكاسل . يبدا الكلمة ولا يتم حروفها . كان كمن يناغي طفلا يخشى الظلام . ونام محمد فى احضان الكلمات المتقطعة وهو يشعر بان احمد الطويل يحمي رعبه .

* × *

نهضنا ثلاثتنا ، فزعين على صوت فرقعة اهتزت لها اركان الغرفـــة الغارقة فى السكون . صوت حاد منفجر كما لو كان رصاصة انطلقت من مسدس . لم ينفع صوت احمد الطويل فى انقاذنا من الرعب ، فقد كان هو

الآخر مرعوبا . امتدت يداه بعد لأي الى علبة الوقيد ، تكسرت وحدات منه قبل ان تتقدح . على ضوئها امتدت يداه المرتجفتان الى الشمعة . خرجت الغرفة من ظلامها لتغرق مرة اخرى فى عالم الظلال والاشباح والرعب . اصداء الانفجار تتردد فى آذاننا . احمد الطويل هو الآخر فقد السيطرة على اعصابه . كان يخشى ـ وهذا ما حدثنا به فيما بعد ـ ان يكون خصومه فى القرية تقصدوا ان ينالوا منه بالاعتداء على ضيوفه . تحسس الباب والنوافذ يبحث عن كسر او اعتداء . طاف باركان الغرفة لعلها حجرة من مقلاع ... خرج من باب الغرفة يقف على حافتها لعل عينيه تهتديان فى الظلام الى اشباح . عاد أدراجه وهو يحاول ان يزرع فى قلوبنا الامن والطمانينة :

ـ لا تخافا فانتم فى حمايتي ...

غرقت الغرفة مرة اخرى فى الظلام ... والهدوء ، وفى حماية نتعلل بها ، وما كنا نومن انه يستطيع حماية نفسه ، لم يهتد محمد الى كلمة يعلل بها نفسه وهو ينطوي على جسده فى شبه كومة تهرب من الفضاء ، ولم اهتد . ولعلنا نمنا لنعيش مع احلام مرعوبة .

بحثنا مع اطلالة الشمس ، وشعاعها يتلصص من نافذة ضيقة ، عن احمد الطويل . لم نجد فى مكانه غير الحصيرة التي آوته فى ليلته . شعاع الشمس اعاد الى نفسينا الطمانينة . ولكن محمد كان ما يزال صامتا كما لو انه ابتلع لسانه . حاولت ان اعود به الى يومنا الجديد ، ولكنه كان متعلقا باحمد الطويل وهو يتساءل : ترى اين ذهب ؟

عاد احمد الطويل وقد غمر شعاع الشمس البطاح والوهاد . عاد وابتسامته العذبة ترسم على شفتيه مزيجا من الاهتمام والطمانينة . بين يديه « ميدونة » من الفطائر والزبدة . ابنته الصغيرة من ورائه تحمل آنية الحليب . دخل الغرفة وهو يؤكد :

ـ لا اثر لمعتدين ولا للصوص . اطمئنا . طفت المنطقة كلها منذ الفجر ، وما من احد ـ حتى الكلاب ـ شعر بشخص غريب او مشبوه يقتحم العزبة .

طوى الحديث عن حادثة الليل وهو يضع امامنا ما اعده لفطورنا ، وانسحب وهو يضيف :

ـــ ساعد الشاي بعد ان تنتهيا من الفطور ... ما رايكما في جولة في المزارع والحقول بعد ذلك ؟

والتفت الى محمد وهو يضيف :

ـــ ... في مزارعكم ... الارض تنتظر المطر ... الله يرحمنا...

اختفى احمد الطويل . فلم يكن له ان يجلس معنا على مائدة واحدة ، ولم يدعه محمد لذلك . ظللت اجتر مع الصديق حادث الليلة حتى بدا لي كحلم مزعج في ليلة دافئة .

اقمى مرة اخرى امام صينية الشاي يتراقص حول لحيته الشقـــراء بخار الماء يغلي . هتف محمد :

ـــ اترك الشاي الآن واسقنا من قارورة عصير العنب . فطائـــر فاطمة لذيذة ، لكنهـــا اتخمتنا .

بحث احمد الطويل عن القارورة وقد انزوت في ركن من اركان الغرفة. اهتدى الى السر وهو يرفعها بين يديه . هتف في انتصار :

ـــ فاض عصيرها ولفظت سدادها ...

اغرق في الضحك وهو يضيف :

ـــ هي ... ـ الكافرة ـ التي فرقعت بالليل فازعجت منامنا ...

تخلصنا من الكابوس الذي جثم على صدرنا منذ بدا احمد الطويـــل قصته المثيرة وقمنا نبحث عن السداد الذي لفظه عصير العنب وقد تخمر.

كان احمد الطويل بادى النشوة رائع المحيا وهو يمتح من نبيذ يتلوقه لاول مـــــرة ...

الربـــاط عبد الكريم غلاب